تقويم الجهود الاستشراقية في الدراسات القرآنية

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

الدكتور محمد حسين علي الصغير

١ ـ طبيعة الفهم الاستشراقي للقرآن:

لعلّه من المفيد حقّاً أن يعقب عرضنا وتحليلنا لجمهرة من جهود المستشرقين في الدراسات القرآنية تقديم ونقد منهجي لتلك الجهود بإلقاء الأضواء على أبرزها شيوعاً وألمعها في الميدان انتشاراً، ففي الوقت الذي نشاهد فيه الجهد الموضوعي يَنْصَبُّ على تاريخ القرآن نجده متضائلاً في بلاغة القرآن، في حين نلمس المحاولات جادّة إلى ترجمته لأغلب اللّغات الحيّة في العالم، مضافاً إلىٰ تحقيق طائفة من أروع ما أُلِّفَ في علوم القرآن ومعانيه وقراءاته والتفاسير، وقد نلمس فهماً مغلوطاً لمضامين القرآن، وتعصّباً ظاهراً لا يستند إلىٰ برهان نصّيّ أو تاريخي، وقد نُبْهَرُ بإنجازات يَعْسرُ توافرها بجهد شخصي، وقد نعجب بالتأكيد على جزئيّات قد لا تهم المسلمين، وقد تَغفل موضوعات لها الأثر الكبير في المجال العقائدي إلى جانب اهتمام في نشوء اللّغة وفقه العربية وموافقة كتب العهدين أو مخالفتهما.

إنَّ الفهم الذي عالج به المستشرقون القضايا القرآنية يبتعد كثيراً عن الفهم الذي نعالجُها به نَحْنُ، فالدراسات البيلغرافية هدف مركزي لديهم، وضبط الوقائع التأريخية مهمّة جديرة بالبحث، واختلاف القراءات ظاهرة تَسْتَأْهِلُ العناية، وكيفية الوحي قضية تثير الشكوك أحياناً. وكتابة القرآن وتدوينه مسألة علمية دقيقة.

أما نواحي الإعجاز فهو مما يخصُّ المسلمين، وقضايا البلاغة شؤون عربية قد لا يحسنها غير العربي الأصيل، وجرس الألفاظ لا تعيها إلاّ أذن بدوية، والالتفات من الفنون البديعية التي ترتبط بالبلاغة العربية، والتفسير الجزئي أو الكلي أو الموضوعي، لا سبيل له في مفهوم المستشرقين، لأن القرآن كتابُ هداية وإرشاد وتشريع للمسلمين لا للمستشرقين.

ومع هذا التفاوت بين الفهم الاستشراقي للقرآن، وواقع الفهم الإسلامي له، تستوقفنا كثرة هذه البحوث القيّمة في الموضوع، وتشعب مفرداتها بالشكل الذي يثيرُ الدّهشة في أغلب الأحيان.

المستشرق يفهم من القرآن أنه غير مجرى الحياة العامة والخاصّة في الجزيرة العربية والعالم، فما هي أسباب ذلك وما هي مؤثراته، هل هي القوة والسيف؟ الخُلُقُ والمحبة؟ الرسالة والتوجيه؟ أم ماذا؟.

العالمُ الفرنسي غوستاف لوبون مثلاً - أخرج في عام ١٨٨٤ م كتاب (حضارة العرب) فخصص الفصل الثاني من الباب الثاني منه لدراسة القرآن الكريم، وبعد أن أعطى خلاصة مركّزة عن جمع القرآن، وقربه من التوراةِ والإنجيل، وقياسه بكتب الهند الدينية، وتعرضه لخلق الدنيا، وصفة الجنّة والنار، ومسامحة اليهود والنصارى، وفلسفة القرآن وأثرها في انتشاره في العالم، والتوحيد المطلق في القرآن، ووضوح مذاهب القرآن، وروح العدل والإحسان في القرآن وسبب انتشاره السريع، وتضامن الأمم الإسلامية بفضل القرآن، وخَطَأ المؤرّخين في بيان أسباب انتشار القرآن عن طريق القوّة[1].

نجده يصرّح بأنَّ القرآن لم ينتشر بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها، لأنَّ الأديان لا تُفْرض بالقوة.

وفي قضيّة أخرى مسلمة عندَ الباحثين العرب في نظم القرآن، وجودةِ تركيبه، وحُسْن تأليفه، نراهُ يرتكب خطأً فاحشاً باعتباره القرآن قليل الارتباط، خالياً من الترتيب، فاقد السياق كثيراً[2].

ويَعُودُ سبب هذا الخطأ الفاحش بطبيعة الحال إلى جَهْلِهِ غَيْرِ المتعمد بِكُنْهِ النظم القرآني، وارتباط الآية بما قبلها، وما بعدها، وانتهاء الموضوع للبدء في موضوع آخر، ومواكبةِ الغرض الفنيّ للغرض الديني بلاغياً وتشريعياً، ورقة الالتفات من الغَيْبَةِ إلى الحضورِ، ومِنَ الخِطَابِ إلى الغَيْبَةِ، ومَنَ الإفرادِ إلى الجمعِ وبالعكس، ومِنَ المضمر إلى المظهر، مما لا يكاد يُحْسِنُ

(١) ظ: لوبون، حضارة العرب، ١١٧ - ١٢٩.
(٢) المرجع نفسه، ١١٧.

فهمه الدَقيق إلاّ العربي المحض، أو مَنْ تَمَرَّس بلغةِ العربِ ذَوْقاً ولساناً وإحاطة.

والأستاذ بول يَسْتَغِل نَصّاً من النصوص القرآنية في إدانَةِ اليهود بأنَّهُمْ ﴿يُحَرِّفونَ الكَلِم عَنْ مواضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦] ليبني حكماً طائشاً على إدراك خاطىء فيعتبر التحريف تغييراً مباشراً لصيغةٍ مكتوبة في القرآن(٣).

وقد اشتمل تعصبه الفاضح على ألفاظ تجريحية أُلْصِقَتْ بالرّسولِ الأعظم دون مسوغ لها علىٰ الإطلاق.

ويثيرُ مسألة الناسخِ والمَنْسُوخ وسيلة يتذرع بها خصوم النبي للقولِ بالتحريف.

ويحاولُ الدَسَّ والافتراء لتشتيت شمل المسلمين من خلالِ هذا المنظور الهزيل الذي لا يوافقه عليه حَتّىٰ المستشرقون(٤).

وتكاد أن تَتَّفِق كلمة المستشرقين وعلماءُ الغربِ المنصفين مِمَّنْ لهم دراسات في هذا المجال ـ وَهُمْ لا يؤمنون بكون القرآن منزلاً مِنَ الله ـ علىٰ صحةِ نقلِ القرآن وانتهائه بنصّه إلىٰ النبيّ محمد (ص)، وهناك بضع شهادات لكبار العلماءِ من المستشرقين تؤكد أنَّ القرآنَ هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بَقِيَ نَصُّهُ محفوظاً من التحريف، من بين كتب الديانات جميعاً، وأنَّهُ لم يَتَطَرَّق شك إلىٰ أصالتِهِ، وأن كل حرفٍ نقرأ اليوم نستطيع أنْ نَثِقَ بأنه لم يقبل أيّ تغيير من يومِ نزوله(٥).

وقد أورد الأستاذ أبو الحسن الندوي جملة من نصوص المستشرقين في الموضوع(٦).

وقد زيّف الامام الخوئي دعاوىٰ القول بالتحريف، ودحضها جميعاً ببراهين وأدلّة رصينة لم يسبق إليها من ذي قبل(٧).

بينما نجد الأستاذ نولدكه في تأريخ القرآن يخالف جملة وتفصيلاً فكتابه هذا بالاضافة إلىٰ ما سبق بيانه في مبحث تأريخ القرآن ـ يفهم فيه من القرآن ما لا يفهمه السذّج أو المتعصبون، يفهم منه أنَّهُ كتابٌ سماوي وتراثي بوقتٍ واحد ويجب أنْ يبحث من وجوه شتّىٰ، وقد اعتبره بحقٍّ أبو عبد الله الزنجاني من أهَمّ ما ألَّفَهُ الافرنج في تأريخ القرآن من نواحٍ شتى بما يشهد بتضلعه واطّلاعه الواسع، كما بحث عن حقيقة الوحي والنبوّة، وشخصية النبيّ (ص) ونزول القرآن، وتأريخ السور مكيّها ومدنيّها.

وقد سلك في كشفِ تأريخ السور مسلكاً قويماً يهدي إلىٰ الحقّ أحياناً، فإنَّه جعل الحروبَ والغزواتِ الحادثة في زمن النبي

---

(٣) ظ: دائرة المعارف الإسلامية الألمانية. ٢/٦٠٢ ـ ٦٠٨.
(٤) ظ: فيما سبق: تأريخ القرآن، فقرة رقم: ٨.
(٥) غانم قدوري، محاضرات في علوم القرآن، ٧٤.
(٦) الندوي، النبي الخاتم، ٣٠ ـ ٣١.
(٧) الخوئي، البيان في تفسير القرآن. موضوع: التحريف.

(ص) وعلمِ تـأريخهـا كحـربِ (بـدر) و (الخندق) و (صلح الحديبية) وأشباهها مِنَ المداركِ لفهم تأريخ ما نَزَلَ من القرآن فيها، وجَعَلَ أيضاً اختلاف لهجة القـرآن وأسلوبه الخطابي دليلاً آخر لتأريخ آياتِهِ.

فيقول في الخطابات الواردةِ في الآيـاتِ بلفظ ﴿يا أيّها الناس﴾ والشدّة في الإنذار، نزلت في أوّل النبوة، وقلّة عدد المسلمين، والخطاباتِ بلفظِ: ﴿يا أيّها الذين آمنوا﴾، وآياتِ الرحمة نزلت بعد ازدياد عدد المسلمين والمؤمنين.

وهو يرتاب في بحثه التحليلي في الروايات والأحـاديث وأقـوالِ المفسّرين في تـأريخ القرآن. وفي عين الحالِ يأخذ من مجموعها ما يضيء فكره، ويرشده إلىٰ تأريخ السـور والآيات ونظمها أحياناً[٨].

ومن أروعِ ما حقّقه الأستاذ نولدكه في كتابه (تأريخ القرآن) وأشار إليه استقصاؤه لتأريخ نزولِ القرآن معتمداً على ما جاء بكتاب: أبي القاسم عمر بن محمّـد بن عبد الكـافي في المـوضـوع (من علمـاء القـرن الخـامس الهجري)، وذكر أن كتاب أبي القاسم موجود في مكتبـة (God Lygd 674 Warn) ثم تقسيمه ذلك إلىٰ ما نزل من القرآن على النبي (ص) في مكّة وإلىٰ ما نزل عليه في المدينة.

ونولدكه وإن نقل أغلب ذلك عن كتاب أبي القاسم إلاّ أنّه حقّقه ونَشَرَهُ وذلّنا بعد ذلك على نسخة الكتاب.

وقد أحسنَ أبو عبد الله الزنجاني صنعاً بنشر ما اعتمده نولدكه، وما استخرجه هو بالاستعانة بكتابَي «نظم الدّرَرِ وتناسق الآيات والسُّورَ» لإبراهيم بن عمر البقاعي، و «الفهرست» لابن النّديم، وقَد بَوَّبَ ذلك في فهارس مُنَسَّقةٍ دقيقة استغرقت أكثر من عَشْرِ صفحات في كتابه[٩].

وكانَ مما اجتهد فيه نولدكه ترتيبه للقسم المكيّ من القرآن وحَصرِهِ بخمسـةٍ وثمانين سـورة وترتيبـه للقسم المدني منـه وحصـره للمدني بثمان وعشرين سورة[١٠].

والغريب أن يكون ما تَوَصَّلَ إليهِ نولدكه بعد البحث والتمحيص والمقـارنة قـد جاء على لسان ابن عبّاس بما حَدَّث بِهِ ابنُ جريج عن عطاء عن ابنِ عَبّاس قال: نزلَت بمكّة خمس وثمانون سورة ونزلت بالمدينةِ ثمان وعشرون سورة[١١].

ولم يذكر نولدكه الفاتحة لا في المكيّ ولا في المدنيّ، ولعلّهُ متوقّفٌ فيها باعتبارها في نظره مكيّة، مدنيّة فتمت بذلك سور القرآن أربع عشرة ومائة سورة.

وهو يضع السورة بموقعهـا التأريخي في

---

(٨) الزنجاني، تأريخ القرآن ٩٢ ـ ٩٣.
(٩) المرجع السابق، ٤٩ ـ ٦١.
(١٠) نولدكه، تأريخ القرآن، ١/٥٨ الطبعة الثانية.
(١١) ابن النديم، الفهرست، ٢٦.

النزول، فيبدأ بسورة العَلَقِ باعتبارها أول ما نزل من القرآن ثم سورة القلم وهي التي تليها في النزول وهكذا يتتبع السور تأريخياً حتى ينتهي بآخر ما نزل بالمدينة المنوّرة.

ويبدو لي أنّ مباحث نولدكه في تأريخ السور هي أنفس ما جاء في كتابه تأريخ القرآن.

وقد كان المستشرق الإنكليزي (أدوار سل) في كتابه (التطوّر التأريخي للقرآن) موضوعياً في بحث المكيّ والمدنيّ وكتابة القرآن وتدوينه. واستفاد بما سبق إليه نولدكه. وقد وثق الأستاذ (كارل بروكلمان) المصحف العثماني، وذَهَبَ إلىٰ رأي قيّم في القراءات بأنّ الكتابة فتحت مجالاً لبعض الاختلاف في القراءات، فاشتغل القُرّاء على هذا الأساس بتصحيح القراءات(١٢).

ولا شَكَّ أنّ ما كتبه المستشرق الفرنسي الأستاذ (بلاشير) في تأريخ القرآن، بنيته وتكوينه، ورسالته في مكّة ورسالته في المدينة والواقعة القرآنية وعلوم القرآن يعتبر من أبرز الجهود الاستشراقية بعد جهود نولدكه، وقد أفاد منه كثيراً لاسيما في تقيده بالمرحلة الزمنية لتأريخ نزول السور القرآنية.

وقد كانت الذائقة العلمية رصينة قَيّمة عند (بلاشير) لاسيما اعترافِهِ بحيرةِ غير العربي عند فهم القرآن(١٣).

إنّ هذا الفهم المتفاوت عند هؤلاء المستشرقين يعود إلىٰ العنصر النفسي الأغلب في شخصية كل منهم. فَمَن اتَّجَهَ اتجاهاً موضوعياً كان ما قدّمه موضوعياً، ومن كان ذا هوىً أو تعَصُّب أو فِرْية أشبع ذلك في بحوثه.

وناحيةٌ أخرىٰ مهمة في مفارقات الفهم الاستشراقي، تنبعث من زاوية عقيدية فالمستشرق قد لا ينظر النصّ القرآني من كونه نصّاً حضارياً، بينما ينظره المسلم نصّاً مقدّساً، ولا يمكن أن نتطلّب من مستشرق أن يرىٰ القرآن بعين المسلمين، فلا نحمّله أكثر من مُهِمَّتِه الأكاديميّة، فقد يتهاون بعض المستشرقين بأقدس جانب من القرآن ولا يراهُ تهاوناً، وقد يقصر في عرض وجهة نظر دقيقة ولا يجده تقصيراً، وقد يطنب في نواحٍ لا تستدعي اهتماماً جدياً في نظرنا، ومع ذلك رأينا البعض الآخرَ يعامل القرآن معاملة تفوق معاملته للتوراةِ والإنجيل وإن كان يهودياً أو مسيحياً، معتبراً القرآن من المقدسات الإلٰهية الكبرى، كما هي الحال عند المتورعين من المسلمين.

وفي هذا الضوء يجب أنْ يكون الباحث منصفاً في التقويم والجرح والتعديل، ولا يتطلّب من الحركة الاستشراقية أكثر مما تدّعيه هي لنفسها، أو أمرن مما تسمح به لها الطقوس

(١٢) ظ: بروكلمان، تأريخ الأدب العربي، ١/١٤٠.

(١٣) ظ: فيما سبق: تأريخ القرآن، فقرة رقم ٧.

الدينية المتداولة، وهذا لا يعني أنْ نَغضّ طرفاً عَنِ الاخطاءِ الطائلة إن وُجِدَت، أو النزاعات المتطرّفة إن كشفت، ولا نتستّر على النيّات المشبوهة الأحكام، ولا نقف موقف المتسامح من القرار اللاموضوعي، ولكن علينا أنْ لا نتمحّل فنتصوّر المستشرقين أتقياء بررة، فنحملهم أكثر من طاقاتهم المتعارفة، ولا نتغطرس فنجعلهم مثالاً للأنانية، فهم بَشَرٌ، والبشرُ فيه الصّالح والطّالح، وهم ملتزمون بعقائد معيّنة، قد يصاحب التزامهم هوىً، وقد تفرض النفوسُ الموضوعيَّةَ.

إنَّ الفَهْمَ الاستشراقي للقرآن قد يختلف أحياناً عن فهمنا لَهُ، لأسباب مُتَأَصّلة، تمليها ظروف نفسيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة، وقد تمليها نزعات عدائية حيناً، وتبشيرية حيناً آخر، وهنا يكمن الخطر المتفاقم إذ قد يشذُّ المستشرق في هذه الأحوال عن الصّواب، وهنا يعامل النصّ العلمي بمنظورِ اليقظة والحيطة والحذر إذ قد يُتجنّىٰ على العلم والحقّ.

وقد يختلف أحياناً عن فهمنا لَهُ، لهموم علمية وأكاديمية تعتبر أجدىٰ نفعاً عندهم وأكثر تحصيلاً مما هي عندنا.

وقد يختلف أحياناً عن فهمنا له لأنّهم لا ينظرون إلىٰ القرآن نظرة تقديس نظرتهم إلىٰ التوراةِ والإنجيلِ، فيكونُ التقصير مفروضاً من داخل النفس الاستشراقية.

وقد يختلف أحياناً عن فهمنا لَهُ لأنَّهم يَرَونَ أنَّ القرآن كتابٌ ثقافي حضاري يدرس من هذا الجانب، ولا يعالج منه ما لَهُ صِلَةٌ بالوحي أو الغيب، وإذا عولج هذا الجانب فقد يعالج معالجة من لا إيمان لَهُ بِهِ، ولا ركون إليه، وهي قضيَّةٌ أخرى.

٢ ـ التوثيق من ينابيعه الأولى:

لمسنا فيما سبق أنَّ الطابعَ العام لدىٰ المستَشرقين العلميين هو الدّقة والضبط وهما يشكّلان الرّكن الأساسي في الجهد الاستشراقي، وفي هذا الضّوء وجدنا العناية فائقة بأصول القرآن تدويناً وكتابةً وفهرسة وتحقيقاً ونشراً وترجمة وتعقيباً باعتبار ذلك جميعاً من الينابيع الأولىٰ لتوثيق النصّ القرآني والمحافظة عليه من الضياع، ولقد كانت مقرّرات المجمع العلمي البافاري في ميونيخ بجمع المصادر الخاصّة بالقرآن الكريم، وضبط قراءاته المختلفة، وعهدته بذلك إلىٰ الأستاذ (براجشترايسر ١٨٨٦ م ـ ١٩٣٣ م) ومن بعده إلىٰ المستشرق الألماني (أوتوبريتزل) أستاذ اللّغة العربيّة في جامعة ميونخ(١٤).

(١٤) ظ: فيما سبق: التحقيق والفهرسة والتدوين.

فقد وجدنا بريتزل متفتّح الأفق، جدّي المبادرة، عملي التنفيذ فكان أوّل ما بَدَأَ به أنْ بَعَثَ بخطاب إلىٰ المجمع العلمي العربي في دمشق يقولُ في جملةٍ منه تحقيقاً للمشروع الذي عُهِدَ لسلفِهِ: (براجشترايسر): «ولقد نَوَيْنَا تسهيلاً لمحبّي الاطلاع أن نُدَوِّنَ كُلَّ آيَةٍ من القرآنِ الكريم في لوحةٍ خاصّةٍ تحوي مختلفَ الرّسم الذي وقفنا عليه في مختلفِ المصاحفِ مع بيانِ القراءات المختلفة التي عثرنا عليها في المتونِ المتنوّعة؛ ومتبوعة بالتفاسيرِ العديدة التي ظهرت على مدىٰ العصور وتوالي القرون»[١٥].

وحينما انجلت المهمّة عن طبعِ العديد من الآثارِ القرآنية لعلماءِ العرب والمسلمين لم يكتفِ بريتزيل عند هذا الحد بل أتحفنا برسالة فريدة «في تأريخ علم القرآن باللّغةِ الألمانية وهي تحتوي علىٰ أسماءِ المؤلفاتِ في علمِ القرآنِ الموجودة في الآفاقِ ودورِ الكتبِ في العالم»[١٦].

وغير غريبٍ بعد هذا ان نشاهد تحقيق:

أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوي، والكشّاف للزمخشري، والاتقان للسيوطي وكتاب المصاحف للسجستاني، ومقدّمتان في علوم القرآن على أيدي مستشرقين آخرين، وهي كتبٌ مهمّة في التفسير وعلوم القرآن، نُشداناً لتوثيق هذه النصوص الثمينة. وقد سبق أن سردنا عشرات الكتب المحقّقة في موضوعها من البحث ولا حاجة إلى إعادةِ ذكرها.

ومع نفاسة هذه النوعيّة من الجهودِ، إلّا أنّنا نقف معجبين بما أسداهُ المستشرق الألماني الأستاذ (جوستاف فلوجل (١٨٠٢ م - ١٨٧٠ م) حينما ألّف أول معجم مفهرس للقرآن في اللّغة العربية، عُني بألفاظِ القرآن ومفرداتِهِ وأسماءُ: (نجوم الفرقان في أطراف القرآن) وطبع لأوّلِ مَرَّةٍ في ليبزك (١٨٤٢ م).

وَهُوَ عَمَلٌ إحصائيٌّ أبْجَدي دقيق اعتمد عليه محمد فؤاد عبد الباقي في موضوع (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم).

وقد استفاد المستشرق الألماني ماليز (١٨٥٧ م - ١٩٤٥ م) من عَمَلِ فلوجل فألّفَ في ضوْئِهِ (دليل القرآن) وزاد عليه أن اشْتَمَلَ عَلىٰ حروفِ الجَرِّ والعطفِ

---

(١٥) الزنجاني، تأريخ القرآن.
(١٦) المرجع نفسه.
(١٧) ظ: فيما سبق: الفصل الثالث، الفهرسة، فقرة رقم ٢.

وأضرابها، وطبع للمرّة الثانية في باريس ١٩٢٥ م.

وإن عجبنا بما حقّقَهُ فلوجل وماليز فهو ليس بأقل من عجبنا بما قام به المستشرق الفرنسي (جول لابوم) حينما وضع (تفصيل آياتِ القرآن الكريم) باللّغة الفرنسية، وذلك بترتيبِ الآياتِ الخاصّة بالموضوع الواحد في فصلٍ واحد، فَصَنَّفَ القرآن نجوماً بحسبِ موضوعاتِهِ ثمَّ جمعها موضوعاً فكان عمله هذا فريداً وإنْ لم يكن شاملاً لموضوعات القرآن كافّة، أو لم يستوعِبْ آيات كُلَّ موضوع إلىٰ جانبه، بل نَدَّ عَنْهُ النَّزرُ حيناً، والكثيرُ حيناً آخر.

وفي هذا الاتّجاه نجد المستشرق الأمريكي: تشارلز تواري (المولود ١٨٦٣ م) ينشر بحثاً قيماً عن مفردات القرآنِ في مجلّةِ عالم الإسلامِ، (١٩٣٩ م)، أفادَ بِهِ كثيراً مما حقّقَهُ الرّاغِبُ الأصبهاني (ت ٥٠٢ هـ) في المفردات في غريب القرآن.

ولقد قام المستشرق الانكليزي ستوري (المولود ١٨٨٨ م) بوضع فهرس إحْصائي دقيق بأدب القرآن لمكتبة ديوان الهند في لندن في (٤٥ صفحة) وطبع في كمبردج عام ١٩٣٠ م).

أما بحث الأستاذ (براجشترايسر) الذي رُقِيَ بِهِ إلىٰ مرتبةِ الأُستاذِيّةِ (عام ١٩١٢ م) فقد كان عبارة عن معجم إحصائي لقُرّاء القرآنِ الكريمِ مع تراجمهم. وهو نَوْعٌ مِنَ التوثيق والضبط قاربه المستشرق الألماني (هوسلايتر) حينما وضع فهرساً لتفسير الطبري.

ولقد كانت العناية بالتوثيق، والدقّة في رصد أبعادِهِ متناهية حينما نشر المستشرق الأمريكي (كومارازوامي ١٨٧٧م ـ ١٩٤٧ م) موضوعاً قَيّماً بعنوان (صحائف القرآن)، تجده في نشرة المتحف الفنّي في بوسطن، ١٩٢٠م، حقق فيه عدد صحائف القرآن الكريم[١٨].

وقد قدمت المستشرقة الرّوسية (فيراتشكوفسكايا ولدت ١٨٨٤ م) بحثاً أصيلاً عن نوادر مخطوطات القرآن في القرن السادس عشر الميلادي أثنىٰ عليه كثيراً الأستاذ أمين الخولي في مؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين[١٩].

ولقد شاء المستشرقون أنْ يفهموا النصوص القرآنية عن كثبٍ، فعمدوا إلىٰ ترجمة القرآن الكريم إلىٰ اللّغات العالمية

(١٨) ظ: فيما سبق: الفصل الثالث، التدوين.
(١٩) ظ: أمين الخولي، مجلة الشبان المسلمين، عدد ديسمبر.

الحيّة، فكانت الترجمات اللاّتينية والايطالية والالمانية والفرنسية والانكليزية والسويدية والهولندية والهندية وغيرها، مشتملة علىٰ جهود مضنية قاسىٰ منها المستشرقون متاعب جسيمة لا يطيقها الكثير من الباحثين المسلمين، إذ ليس أمراً يسيراً أنْ يتفرغَ فردٌ أو جماعاتٌ، لغتهم الأُمُّ غير العربية إلىٰ ترجمة نَصٍّ عَرَبيٍّ فريدٍ، يكمن في تعبيره الحسُّ الاستعماري إلىٰ جنبِ البُعدِ التشبيهي، والتعبيرُ المجازي بسويّةِ الإرادة الحقيقية من القول، هذا مضافاً إلىٰ تداخل الأشباه والنظائر والمترادفات في الألفاظِ، ووجود التضاد والاشتراك في المادّة الواحدة. مما يعني تَمَرُّساً دقيقاً في فنون القولِ، وعناءً شاقّاً في اضطلاع اللُّغة والبيان ودلالة الألفاظ.

وقد كانت هذه الجهود المتقدمةُ مجتمعةً سبيلاً إلىٰ توثيق نصوصِ القرآن ومعاينتها بمنظورٍ عَصْرِيٍّ مُتَميزٍ من ينابيعها الأولىٰ.

٣ ـ استقراء المجهول:

ولا شَكَّ أنّ هدفاً أساسياً يحدو بالمستشرقين إلىٰ خوضِ عُبابِ القرآن، والغوص في أعماقِ كنوزه، ألا وهو استقراء المجهول، واستكشافِ الحقائق، ولا يكونُ هذا الملحظ إلاّ علمياً أصابوا الهدف أمْ أخطأوه. وقد كان مضمار هذا الارتياد السبق إلىٰ المعرفة، بالتأكيد علىٰ الجزئيات الأوليّة، التي تمهد في الوصول للكليات الرئيسية، فكان عملهم كالمقدمات الضرورية التي تنتهي إلىٰ نتائج ضرورية، فيما يقدّرون لا فيما نقدّر إذْ قد نوافقهم حيناً ونختلف معهم حيناً آخر فيما قرّروا من استنتاج.

ومهما يكن مِنْ أمرٍ، فقد سلكوا إلىٰ تحقيق هذه الخطوة اتجاهاً عملياً أصيلاً بالتأكيد علىٰ دراسة القرآن موضوعاً، موضوعاً، ولم يتناولوا بطبيعة الحال كل موضوعات القرآن، بل اكتفوا بالبعضِ منها، مما يسهل بحثه، أو تتوافر مصادره، أو يخلص إلىٰ حصيلة مثمرة، والحقّ أنّ هذا الاتجاه يعني الاستقصاء والاستيعاب الشامل، ويتطلّب القيام بعملية إحصائية في ذات الموضوع المراد حثه. ومع أنَّ الشك يخامرنا في قدرة جملة المستشرقين علىٰ تحقيق هذا الغرضِ، إلاّ أننا لمسنا مقدرة فائقة أحياناً عند الطبقة الممتازة منهم، مِمَّن بدا على بحوثه سيماء الصبر والأناة والتحفّز، فمشقة الدراسات الاستقرائية تضني الباحثين، وقد لا يحقّقون قدراً يُعْتَدُّ به من

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

النجاحِ إلا بعد سنين من التمحيصِ وعناءِ الاستنباط.

ولقد كان في إصدار الأحكام مصاحباً لجمهـرة من البـاحثين بعض الأحيـان، والارتجال دَيْدُناً للبعض الآخرِ منهم، وهذا نتيجة طبيعية لأَمْزِجَةِ المستشرقين المتأرجحة بين السطحية والموضوعية، ومع هذا فقد تجنبنا الاسفاف فيما قدمنا لهم من بحوث قد يكون البعض منها مرضياً والآخر متهافتاً، ولا يعني هذا الغضّ من المنزلـة العلمية من جهةٍ، أو إسدال الستارِ علىٰ الأخطاء من جهةٍ ثانية، فكان كُلٌّ على سبيله.

لقـد لمسنا في الفصـلِ الخـاصِّ عن الـدراسـاتِ المـوضـوعيـة التي بحثهـا المستشرقون جهداً لا ينتقض، ومثابرة لا تجحد، ففي مجال العقائد والديانات وضعنا أيدينا على بحوثٍ قَيمةٍ في التشريع القرآنيّ، والمقارنة بين القـرآن والكتب السّماويّـةِ، والعلاقات العامة بين الديانات وكان أبرز من أكَّدَ علىٰ هذا الجانب المستشرق الهولندي (فِنْ ١٨١٤ م ١٨٩٥ م) إذ واكب حديثه عن ذلك في خمسة بحوثٍ تتعلّق بالرّسولِ الأعظم والقرآن الكريم، وقد نشرها تباعاً في مجلّة الدليل الهولندية.

وقد كشف المستشرق الألماني الأستاذ (بوشتارك) عَنِ العلاقة بين الإسلام واليهودية والنصرانية في أبحاثٍ قيمة[٢٠].

وكـان التـأكيـد علىٰ عـلاقـة الإسـلام بالمسيحية مثار بحوث متعـدّدة عند ولكـر وآرنس وبوركهارت وريتشارد بِلْ[٢١].

ومن الطريف حقاً أنْ يرى (يوزف كورت زولفرنك) إشارات إلىٰ صيغ تشريعية عربية قديمة في القرآن، وأنْ يكشف (اليونـوره هونز) عن إشارات قرآنية إلىٰ الثقافة المادية للعرب القدماء، وأنْ يتحدث (فان جنيب) عن إبـراهيم في القرآن حـديثاً أكـاديميـاً راقياً[٢٢].

وفي الحـديث عن الفن القصصي في القرآن المشتمل على بيان الأحوال والطقوس والمفـارقات لـلأُمَمِ المـاضيـة، وأهـداف القصص الـديني واختـلافـه عن القصص الـدنيـوي أدركنـا المستشـرق الألمـاني (هورفيتش) يبدي كثيـراً من الملاحـظات الدقيقة والمعلومـات الصائبـة في معالجـة النصوصِ القصصيّة في القـرآن الكريم،

(٢٠) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع، فقرة رقم ٥.
(٢١) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع، الفقرات ٨، ١٣، ١٦.
(٢٢) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع، الفقرات ٩، ١٠، ١٢.

ويكشف عن الجانب التأريخي لقصص الأنبياء والأولياء والصالحين وعلاقة ذلك كلّه بمبدأ النبوة في القرآن.

وغير غريبٍ أن نلمس الجانب الصّوفي والمناخ الرّوحي في قصص الهجادة في القرآن، ومصادر القصص الإسلامية وقصص الأنبياء في القرآن، وقصص أهل الكتاب، وأهل الكهف في القرآن، وعناصر هذه القصص ورجالها وأدوارها[٢٣].

ولقد كانت الموضوعية أكثر شيوعاً في الأبحاث اللغوية الأصلية، وقد كشف الأستاذ (فرانكيل) في رسالته للدكتوراه (الكلمات الأجنبية في القرآن) عمقاً جديداً في مراحل فقه اللغة العربية، وأثر القرآن الكريم في تطوير المفهوم اللّغوي منذ مراحله الأولى، وقد جَدّدَ هذا الفهم الأستاذ (كاله) في بحثه القرآن والعربية، و(بيكر) في قواعد لغة القرآن في دراسات نولدكه).

وكان لبلاغة القرآن نصيبها المحدود في دراسات المستشرقين وممّا ينوّه به ما بحثه الأستاذ (بول) في التشبيه والتمثيل في القرآن، و(ربسون) في الإعجاز في القرآن، و(ستانتون) في بيان القرآن، و(كريستنس) في سحر الآيات القرآنية[٢٤].

وفيما عدا هذه الأبواب، لاحظنا عن كثب جمهرة لا يستهان بها من الدراسات المتنوّعة لعدة جوانب من القرآن في كتابته، وتدوينه، وروايته، وجمعه، وفواصله، ومصادره، ومنتخباته، وتفسيره، ومتشابهه، وقوانينه، وتلاوته، وقراءاته، ولهجاته، . . . الخ.

إن نقد هذه الدراسات وتقويمها، يحتاج إلىٰ توافر على مصادرها ومراجعها، وهي بلغات متعدّدة، ولا يَتَيَسَّرُ أغلبها إلاّ في جامعات الغربِ ومكتباته، وما أفدنا منه كان نتيجة إمعانٍ في بعضها، وقراءة عن البعضِ الآخر، ورواية لا ندري نصيبها من الصّحة، إلاّ أنّنا علىٰ العموم نكاد نقطع أنّ هذه الدراسات والقيم منها بخاصّة قد شارك مشاركة فاعلة في إرساء صرح الحضارة القرآنية، وأبانَ عن خباياها الثمينة، وكشف عن وجهها الناصع.

لقد لمسنا فيما مضَى دِقَّةً ومرونَةً، دِقَّةً في الاستقراء، ومرونَةً في الاستنباط والذي يعنينا بيانه: هو الجدّية في العمل عند هؤلاءِ المستشرقين، والمثابرةُ والصبرُ على البحثِ الصّادِقِ، مِمَا يدعونا إلىٰ القولِ بعظيمِ ما حقّقوه مِنْ إنجاز، وكبير ما قدّموه من عطاءٍ.

(٢٣) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع، الفن القصصي.

(٢٤) ظ: فيما سبق: الفصل الرابع، بلاغة القرآن.